مناقشات فى التصوير...

للأستاذ عبد المنعم محمد خلاف

— ١ —

« التصوير هو الأداة المفضلة فى أسلوب القرآن ، فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهنى والحالة النفسية ، وعن الحادث المحسوس ، والمشهد المنظور ، وعن النموذج الإنسانى والطبيعة البشرية ... فما يكاد يبدأ العرض حتى يحيل المستمعين نظارة .. »

« فإذا ما ذكرنا أن الأداة التى تصور المعنى الذهنى والحالة النفسية و... إنما هى ألفاظ جامدة ، لا ألوان تصور ولا شخوص تعبر ، أدركنا سر الإعجاز فى تعبير القرآن » .

والأمثلة على هذا الذى نقول هى القرآن كله حيثما تعرض لغرض من الأغراض التى ذكرنا ... »

فليس هو (أى التصوير الفنى) حلية أسلوب ولا فلتة تقع حيثما اتفق ، إنما هو مذهب مقرر وخطة موحدة وخصيصة شاملة »

بهذا التعميم يبسط الأستاذ سيد قطب رأيه الذى يربط به إدراك « سر الإعجاز فى تعبير القرآن »

وقد قلت فى مقالى السابق[1] عن كتابه «إن الحكم بتفضيل القرآن للتصوير كأداة مفضلة فى التعبير يقتضى الاعتماد على الإحصاء وظهور نتيجته بكثرة عددية ، فهل إذا أحصينا طرق التعبير فى القرآن نجد ما قرره المؤلف يحظى بالكثرة العددية ؟ إنى أترك له أن يستعرض صفحات القرآن ، فسيجد أن التصوير الفنى أداة واحدة من أدوات التعبير الكثيرة فى القرآن ، وليست هى الغالبة ولا الكثيرة ، فتارة يعبر عن المعنى المراد بالتعبير المتكافىء المعنى واللفظ ، الذى يستخدم الألفاظ الوضعية وحدها ، وتارة يستعير لفظة واحدة من غير أسرة الألفاظ التى فى الجملة ليحرك بها الخيال ويلمس الحس لمساً رفيقا ، وتارة تكون ألفاظ الحقيقة وملابسات الخيال متساوية ، وتارة تكون ملابسات التصوير وإثارة الخيال هى الغالبة ، وتارة تكون هى الكل ، ومع ذلك يحتفظ القرآن فى كل أولئك بأسلوبه المتفرد وسر إعجازه . فليس التصوير الفنى وحده « هو سر الإعجاز فى تعبيره » .

ولكن الأستاذ سيد يقول فى الرد علىّ « نعم (أى أن نتيجة الإحصاء تؤكد رأيه) وقد كانت مهمتى هى هذا الإحصاء وكان حكمى قائماً على هذا الإحصاء »

وقد وصلنا بهذا الرد إلى مكان تغنى فيه الأمثلة والشواهد ما لا يغنى الجدل . ولست أستطيع أن أسرد « القرآن كله » فى مجلة الرسالة للاستشهاد كما لم يستطع صاحب « جحا » أن يعد النجوم حينما سأل « جحا » كم عدد نجوم السماء ؟ فقال له : كذا ... فلما تشكك ذلك الصاحب قال له جحا : إن لم تصدقنى فعدها أنت ... »

وهأنذا أفتح المصحف حيثما اتفق ، فاقرأ معى من سورة الفرقان : « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا . الذى له ملك السموات والأرض ، ولم يتخذ ولدا ، ولم يكن له شريك فى الملك ، وخلق كل شىء فقدّره تقديرا . واتخذوا من دونه آلهة لا يَخلُقون شيئاً وهم يُخلَقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ، ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشورا ، وقال الذين كفروا : إن هذا إلا إفكٌ افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ؛ فقد جاءوا ظلما وزورا . وقالوا أساطيرُ الأولين اكْتَتَبَها فهى تُمْلَى عليه بكرةً وأصيلا . قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض . إنه كان غفورا رحيما » . ولنفتح القرآن مرة أخرى حيثما اتفق ولنقرأ من سورة الأنعام :

« الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يَعْدِلون . هو الذى خلقكم من طين ، ثم قضى أجلا . وأجل مسمى عنده ، ثم أنتم تمترون . وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون . وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ، فقد كذبوا بالحق لما جاءهم ، فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون » .

ولنقرأ من سورة الأعلى :

---

(١) انظر العدد ٦١٧ من الرسالة .

« سبِّح اسمَ ربِّك الأعلى . الذى خلق فسوّى . والذى قدّر فهدى . والذى أخرج المرعى . فجعله غُثاء أحْوَى . سنُقْرِئُك فلا تنسى . إلا ما شاء الله . إنه يعلم الجهر وما يخفى . ونيسرك لليسرى . فذكّر إن نفعت الذكر ... »

ولنقرأ من النساء : « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظُلم وكان الله سميعا عليما . إن تُبْدُوا خيرا أو تخفوه أو تَعفُوا عن سوء فإن الله كان عفُوًّا قديرا . إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرّقوا بين الله ورسله ، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا . أولئك هم الكافرون حقا ، وأعتدنا للكافرين عذابا مُهينا . والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم ، وكان الله غفورا رحيما » . واقرأ من سورة الأعراف : « ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه ، فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين . قال ياقوم ليس بى ضلالة ، ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين . أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون فكذّبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك ، وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ، إنهم كانوا قوما عَمين » وهكذا سأتعب وأتعب القارىء من عد آيات القرآن للاستشهاد بها فى هذا المعرض كما يتعب من يعد نجوم السماء ...

فأين فى هذه الآيات وأمثالها الكثيرة « التصوير الفنى » الذى لفت نظر الأستاذ سيد وأثار خياله ، حتى وهو طفل ، بحبكته فى اللوحات ذات الوحدة والتناظر والتمثيل الجامع ذى الظلال والأجواء الشاملة كما يتجلى فى « ومن الناس من يعبد الله على حَرْفٍ ، فإن أصابه خير اطمأنّ به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ... » وفى : « مَثَلُ الذين كفروا بربهم ، أعمالُهم كرمادٍ اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شىء » وفى « له دعوة الحق . والذين يَدْعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء إلا كباسط كفّيه إلى الماء ليَبْلُغ فاهُ ، وما هو ببالغه ... » وفى « ومن يشرك بالله ، فكأنما خَرّ من السماء فتخطَفُه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ... »

فهل نستطيع أن نقول إن أمثال هذه الآيات التى ذكرناها من سور الفرقان والأنعام والأعلى والنساء والأعراف لا تعبر عن « معان مجردة أو حالات نفسية أو صفات معنوية أو نماذج إنسانية ... الخ » وهل نستطيع أيضا أن نقول إن « نوع » التعبير فى هذه الألوان واحد من الجهة الفنية ؛ وهل لا نلمس فى هذه الآيات نفس الإعجاز الذى نراه فى غيرها من أدوات التعبير القرآنى ، حتى نربط ما بين الإعجاز وبين التصوير الفنى ؟

لا . إنى لا أقر الأستاذ قطب على هذا التعميم ، وكنت أحسبه فلتة قلم دعا إليها حماسه للموضوع ولكن رده علىّ بعد ذلك يؤكد أنه « يعنى ما يقول مرتكنا فيه إلى الدليل » . فلم يكن لى بد أن أسرد له وللقراء تلك الشواهد التى سلفت ، محيلا إياهم على استعراض القرآن . ليتبينوا أن « التصوير الفنى » أداة واحدة من أدوات التعبير الكثيرة ، وأن القرآن يحتفظ بروحه الفذ وجميع خصائصه الإعجازية فى كل هذه الأدوات ...

— ٢ —

أنا ما خشيت على القرآن من إدراك « سر الإعجاز فى تعبيره » كما ظن الأستاذ سيد ، وإنما بينت أننا لو ربطنا بين سر الإعجاز وبين التصوير الفنى وحده نكون قد سوينا بين تعبير القرآن وبين غيره من مواريث أرباب البيان الرفيع فى كل لغة إذ أننا نجد فى مواريثهم استخدام التصوير الفنى للتعبير عن « المعانى الذهنية والحالات النفسية والحادث المحسوس والمشهد المنظور ... الخ » ومع ذلك لا نجد فى بيانهم هذا اللون المتفرد ولا نجد فى نفوسنا هذه الاستجابة المسحورة لتخييلهم وتصويرهم كما نجدها حينما نتلو القرآن .

فأكرر للمرة الثانية أن المعجز من أمور الحياة ما لا يمكن الوصول إلى سره واستخدامه ، وكل أدوات التعبير التى أشرنا إليها قد استخدمها البلغاء . ولكن شتان بين الروح الحى الذى يترقرق فى بيان القرآن ويشع من « هياكله » البيانية فى السطور وما بينها وبين الهياكل البيانية البشرية الجميلة ... شتان بين ما يمكن إدراكه بالمقاييس والمسافات ، وبين أسرار ذلك العالم الأعلى الطليق

الذى تنزل منه فى القرآن روح متفرد لا يستطاع حده بحدود وأربطة . فلا يصح أن نربط بين سر الإعجاز وبين أى أداة من تلك الأدوات. إن الكون صنع الله والقرآن كلام الله ، وأسرار الإعجاز فى كلامه كأسرار الإعجاز فى صنعه ، نستطيع أن نصف آثارها فى نفوسنا وعجبنا منها . ونستطيع أن نهتدى فيها إلى معالم للجمال تقاس ، وعجائب للبلاغة تجلّى ولكنا لا نستطيع أن نقول : إنها موضع سر الإعجاز فى تعبيره .

— ٣ —

كل ما فى القرآن من « منطق » الوجدان فى إثبات عقيدة التوحيد أنه ساق القضايا العقلية بتعبير جميل أخّاذ حرك به الوجدان والمشاعر مع تحريك الذهن والحكم لصلب كل قضية ، ولم يسقها بأسلوب جاف كأسلوب الناطقة الرياضيين الذى تتزاحم فيه المعانى فى ألفاظ ضيقة . وأى كلام اعتمد على «الحقائق البديهية الخالدة » وعلى مقدمات ونتائج صحيحة سواء أكانت محسوسة ومنظورة أم غير محسوسة ومنظورة فهو منطق ذهنى . فإذا جمع إلى صحة المقدمات والنتائج جمال التعبير وروعة الأسلوب وإشراق الطلعة فهو منطق «وجدانى» كذلك . منطق الوجدان — وإطلاق « المنطق » هنا تجوز فى التعبير — هو الذى يتأثر بالخطابيات والشعر والموسيقى وغير أولئك من ألوان الفن التى لا تعتمد على الحقائق الثابتة و « نقط الارتكاز» الواضحة فى عالم البداهة و«الحكم العقلى » . والتأثر بهذا « المنطق » تأثر وقتى لا يترك رواسب فى الذهن ومقاييس تملأ اليد ، يستطيع الفكر أن يتحاكم إليها ، ولأنها ألوان وظلال ونغمات وأعراض غير ملازمة تنفعل لها النفس انفعال الانقباض أو الانبساط وقتاً ثم يزول تسلطها عليها .

وليست هذه الأعراض هى طريق إقرار « العقائد » ودعائم الفكر والحياة عند الراصدين المتيقظين الواعين ، وخصوصاً الدعامة الأولى والقضية الكبرى قضية « التوحيد » التى هى قضية الكون كله وأعظم شئونه ! إن الوجدانيات من الخطابيات والشعر والموسيقى وسائل إقناع وقتى للبسطاء ، وليست وسائل يقين ثابت للذين يبحثون لعقولهم عن عواصم تستند إليها من طوفان الأهواء والنوازع والوجدانات المتقلبة ... وما كان للقرآن وهو يتصدى لإثبات القضية الكبرى أن يعتمد على « المنطق » الوجدانى . وإنى أرى الذهن فى إثبات العقائد وخصوصاً « التوحيد » هو أوسع المنافذ وأصدقها وأدقها ، كما بينت فى المقال السابق بهذا الخصوص .

والذى يدعونى إلى أن أفهم أن الأستاذ سيذهب إلى أن موطن العقيدة — بما فيها التوحيد — هو الوجدان قوله «موطن العقيدة الخالد هو الضمير والوجدان » « وما الذهن فى هذا المجال إلا منفذ واحد من منافذ كثيرة ، وليس هو على أية حال أوسع المنافذ ولا أصدقها ولا أقربها طريقاً » « فلندع الذهن يدبر أمر الحياة اليومية الواقعة أو يتناول من المسائل ما هو بسبب من هذه الحياة . فأما العقيدة فهى فى برجها العالى هناك ، لا يرقى إليه إلا من يسلك سبيل البداهة ويهتدى بهدى البصيرة ويفتح حسه وقلبه لتلقى الأضواء والأضواء » .

فهذه كلمات صريحة (فيها الحصر بإنما والنفى والاستثناء) فى إقصاء الذهن عن منطقة العقيدة ، وفى التفريق بين عمل الذهن وعمل الوجدان فى الحياة والعقيدة ، اضطررت إلى مناقشتها فى مقالى السابق كظاهرة لمذهب كلامى فشا الحديث به فى هذا العصر الذى اتصل فيه المسلمون بغيرهم من الذين وجدوا أصول دينهم لا تستقيم مع الفكر والحكم العقلى فالتمسوا العقيدة عن سبيل الوجدان وحده

ومع أن هذا النص من كلام المؤلف يكفى لأن يسلكه مع القائلين بأن منطقة العقيدة هى الوجدان وحده ، فإننى لم أغفل النظر إلى ما قاله قبيل هذا النص مما يستفاد منه أنه لا يخرج الذهن إخراجا كلياً من منطقة العقيدة .

ولذلك لم أناقش كلامه مناقشة حرفية ولكنى ناقشت الفكرة التى تشيع فى جو الفصل كله . ولكننى هذا الجدل بالمثال فإنه أبلغ فى الحجة وأروح للنفس : قلنا إن مسألة المسائل التى دار عليها أكثر جدل القرآن هى عقيدة التوحيد . وأنسب الآيات التى تناولت هذا الموضوع هى آيات سورة الأنبياء وقد ساقها المؤلف كدليل على ما ذهب إليه فلنقرأها معاً :

« أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون . إلا (ينشرون) كما ضبطها المؤلف . فليضمها إلى ما نبه إليه

فضيلة الشيخ السبكي] . لو كان فيهما آلهةٌ إلا اللهُ لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون ! لا يُسألُ عمَّا يَفْعلُ وهم يُسألون . أم اتخذوا من دونه آلهة .. قل هاتوا برهانكم ! هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وذِكْرُ مَن قَبْلي ، بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون » فهل ترى هذه الآيات تركت حجة «ذهنية» يمكن إيرادها للكر على مزاعم القوم ثم لم تفعل ؟ « أم اتخذوا آلهة من الأرض هم يُنْشِرون» فالإله هو وحده الذى يخلق ويُحيي ويُنْشِرُ الخلائق من الأرض . فهذا مقطع من مقاطع الاستدلال بكلمة واحدة يدور بها الذهن فى استعراض سريع للأرض وكائناتها للبحث عن حيٍّ مخلوق واحد لغير الله فلا يجد . وإنه لَلدَّليل الاستقرائى بعينه ! ذلك الذى بنى عليه (بيكون) الفلسفة الاستقرائية الحديثة .. وإنه لَلدَّليل المفضَّل عند المربين وعلماء النفس .

« لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » وهذا مقطع آخر من مقاطع الاستدلال فى كلمة واحدة أيضاً ... وإنه للدليل التطبيق بعينه ! أحد ضروب الأدلة الكبرى ، يطبق فيه العقل فى ظروفه المتسعة ما يدركه من لوازم تعدد الرياسات وفساد الأمور إذا تولتها أيد متعددة سيكون بينها بالطبع ما يكون بين المتعددين ولا يمنع خلافهم وتنافسهم وتحاسدهم أنهم آلهة فى طباع مختلفة عن الآدميين . فإن التصور البشرى لا يستطيع أن يجرد الآلهة من صفات الناس لأنه لا يملك غير منطقه هو ، فهو معذور !

« فسبحان الله رب العرش عما يصفون » ذلك موقف وجدانى فيه انفعال وتقزز من تلك الدعوى وتنزيه لله عما وراءها من أزمات ومحرجات . وهو موقف معترض للاسراع بالتنزيه تعود الآيات بعده إلى الاستدلال « لا يُسأل عما يَفْعل وهم يسألون » وهذا مقطع آخر فيه ضرب عظيم من ضروب الاستدلال هو الدليل العملى الواقعى ، وهو كذلك أحد ضروب الأدلة الكبرى وله فى الفلسفة العصرية المقام الأول إذ به تسير الحياة العملية وهو محور الاجتماع ...

فما دام الواقع أن جميع الآلهة المزعومة مَلَكَ الناسُ أن يواجهوها بالمسئولية والمحاكمة فلا يصح أن تكون آلهة ما دامت تقع عليها الدينونة ... ولكن الذى خلق السموات والأرض لا يملك عابد له أن يرفع عينه إليه بمسئولية ، بل ليس له إلا التسليم والإذعان مادام عاجزاً عن الهرب من أقطار السموات والأرض ...

« من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ، ثم ليقطع فلينظر هل يُذهبَنَّ كيده ما يغيظ ! »

وهل فيما زعمته الوثنيات والإشراكيات شخصية إلهية لم تسأل ؟ إن آلهة اليونان والهندوس وغيرهما كما وردت فى أساطيرهم ذات صفات عاجزة فيها العبث واللعط والمنازعات التى كان وراءها مسئوليات .

« أم اتخذوا من دونه آلهة . قل هاتوا برهانكم ! » إذاً نحن فى مقام جدل كبير يتسع للرد وقرع الحجة بالحجة وتشقيق الدليل وراء الدليل ، ولسنا فى مقام تسليم بوجدان عن طريق تعريض « الحس والقلب للأسداء والأضواء » والخطابيات والشعريات والنغمات .

« هذا ذكر من معى وذكر من قبلى » وهذا مقطع عظيم أيضاً من مقاطع الاستدلال هو ما يسمونه « الدليل التاريخى » إذ أن التاريخ لم يثبت حياة رسول جاء قومه بغير الوحدانية ... إذاً فقد سد القرآن مجالات القول والاستدلال أمام المشركين حتى أثبت أنهم لا يستندون فى دعواهم إلى أى حق ، وإنما إلى التكبر والجهل والإعراض . وكان هذا الختام « بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون » نتيجة منطقية ذهنية واضحة لمقدمات واضحة أخذت بضروب الأدلة جميعاً ولم تترك مفراً لجدل مجادل ...

فكيف بعد هذا كله يضرب الأستاذ قطب هذه الآية مثلا فى أن القرآن تناول مشكلة التوحيد بلا جدل ذهنى ؟ ! إن المنطق هنا منطق ذهنى دقيق أخذ من موارد الكون والنفس جميعاً ، غير أنه ورد بتعبير القرآن الفنى الجميل المعجز الذى يُدنى البعيد القصىّ ...

ألم يقل : « فإنما يسّرناه بلسانك لتبشّر به المتقين وتنذر به قوماً لُدّاً » وما أدراك ما لدَدُ العرب وجدالهم ! « بل هم قوم خَصِمُون »

ولكن « إن كنتَ ريحاً فقد لاقيتَ إعصاراً » وقد أتاهم من القرآن إعصار من البيان كبَّهم على مَنَاخِرِهم وأذقانهم !

عبد المنعم محمد خلاف